الفصل السادس

مع المصطفى الضحوك ﷺ

١- الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ .

٢- دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي وحزنه.

٣- المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدها .

٤- موقف النبي من ضحك الاستهزاء .

obeikandl.com

مع المصطفى الضحوك ﷺ

لم يكن رسول الله ﷺ ـ كما ذكرنا سابقا ـ خارجاً عن الفطر السوية في فعل من أفعاله ، أو قول من أقواله ، ولقد صدق الأعرابي حين سئل عن سبب إيمانه بمحمد ﷺ فقال : ما أمر بشيء واستقبحه العقل . ولا نهى عن شيء واستحسنه العقل .

إن العقول السليمة ، والفطر السوية ، والطبائع المعتدلة ، والغرائز البشرية ، لا تعارض الدين ولا يعارضها الدين .

الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ :

ولقد عدد الإمام ابن القيم رحمه الله أسماء الرسول ﷺ وذكر منها « الضحوك القتال » ثم قال : وأما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان ، لا يفرد أحدهما عن الآخر فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين ، غير عابس ولا مقطب ولا غضوب ، ولا فظ ؛ قتّال لأعداء الله ، لا تأخذه فيهم لومة لائم[1] .

وقال أيضا : وأما صفته ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه « الضحوك القتال » فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه إذا كان حدا لله وحقا له . ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه ، فيعطي كل حال ما يليق بتلك الحال فترك الضحك بالكلية من الكبر والتجبر وسوء الخلق ، وكثرته من الخفة والطيش ؛ والاعتدال بين ذلك[2] .

والمتأمل لوصفه ﷺ الذي جمعه كتّاب السير والشمائل والصفات والأخلاق ؛ بل والحديث والتفسير ؛ يجد أنه ﷺ كان أميل إلى الضحك والتبسم ؛ تماشياً مع الفطرة التي فطر الله عليها البشر .

---

(١) انظر : زاد المعاد ، مرجع سابق ، ٩٤/١ .

(٢) انظر : هداية الحيارى ، ابن القيم ، ط الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ١/ ٧٥ .

انظر إلى وصف جابر بن سمرة ، عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر ابن سمرة رضي الله عنه : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم[1].

وهذا جرير بن عبد الله يقول : ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسم في وجهي[2].

وقد روى ابن عساكر عن أنس قوله : كان النبي ﷺ من أفكه الناس[3].

وهذا كعب بن مالك يقول : كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ؛ كأن وجهه قطعة قمر[4].

وحين وصف هند بن أبي هالة رسول الله ﷺ قال في وصفه : وإذا ضحك غض طرفه ، جُل ضحكه التبسم[5].

ويحاول البعض أن يمنع الضحك بحجة هموم الدعوة ، وهم الدين ، بيد أن هذه حجة واهية ، فلم يكن هناك ، ولن يكون من هو أكثر اهتماماً بالدعوة من رسول الله ﷺ وليس هناك من تعددت لديه الواجبات كما تعددت لدى رسول الله ﷺ ، فلقد كان بأبي هو وأمي : إماماً للناس ، ومعلماً للخلق ، ومفقهاً للدين ، وحاكماً بين الناس ، وقاضياً بينهم ، ومجيشاً للجيوش ، وباعثاً للسرايا ، كما كان أباً رحيماً ، وزوجاً باراً ، وأخاً ودوداً ، وصديقاً وفيّاً ، ومع هذا كله فقد كان ﷺ ضحاكاً بساماً ، وتؤكد ذلك السيدة عائشة فتقول حين سألتها عمرة قالت :

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٢) .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٤) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢١١/٥) والبيهقي في الشعب (٢٩٢/٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٩٣) .

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٥٤) وقال الألباني في فقه السيرة ضعيف (٢٠٢) .

سألت عائشة كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في البيت ؟ قالت : ألين الناس بساما ضحاكا[1].

وفي رواية عند الترمذي في العلل : عن عائشة أنها سئلت كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، كان رجلاً من رجالكم ، إلا أنه كان ضحّاكاً بسّاماً .

ويقول أبو أمامة : « كان رسول الله ﷺ من أضحك الناس ، وأطيبهم نفسا »[2].

دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي ﷺ وحزنه :

وقد يظهر التعارض بين الأحاديث فيزيله قول الإمام السيوطي : « كان من أضحك الناس » لا ينافيه خبر « أنه كان لا يضحك إلا تبسما » لأن التبسم كان أغلب أحواله ، فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله ؛ ولم يعرج على ذلك لندوره ، أو كل راوٍ روى بحسب ما شاهد ، فالاختلاف باختلاف المواطن والأزمان ، وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه ، وكان آخراً لا يضحك إلا تبسما [3].

وتقول عائشة رضي الله عنها : ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ؛ إنما كان يتبسم »[4].

ويؤكد ذلك عبد الله بن الحارث فيقول : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ [5].

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه (٢/ ٤٣٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٨٦) .

(٢) رواه الطبراني (٨/ ٢٠٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه علي بن يزيد الألهاني ؛ وهو ضعيف (٨/٥٧٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٨٧) .

(٣) الجامع الصغير ، السيوطي ، ط دار طائر العلم جدة ، ص ٢٣٥ .

(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٨) ومسلم في الكسوف (٨٩٩) .

(٥) رواه أحمد في المسند (١٧٧٠٤) وقال محققو المسند : حديث حسن . ورواه والترمذي (٣٦٤١) والبيهقي في الشعب (٨٠٤٧) وابن المبارك في الزهد (١٤٥) .

وفي رواية عن عبيد الله بن المغيرة سمعت عبد الله بن الحارث يقول : ما رأيت رسول الله ﷺ قط إلا متبسماً .

بل لقد كانت بعض المواقف تأخذ من رسول الله ﷺ كل المآخذ حتى يضحك ويستعلي به الضحك ـ ولكن ذلك على سبيل الندرة ـ فعن أبي أمامة قال : إن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه : هل أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فسكتوا فقال أبو بكر ﷺ : أنا يا رسول الله . ثم قال : هل عاد أحد منكم اليوم مريضا ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر ﷺ : أنا يا رسول الله ، ثم قال : هل تصدق أحد منكم اليوم صدقة ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر ﷺ : أنا يا رسول الله ؟ فضحك رسول الله ﷺ **حتى استعلى به الضحك** . ثم قال : والذي نفسي بيده ما جمعهن في يوم واحد إلا مؤمن وإلا دخل بهن الجنة»[1].

ولربما ضحك ﷺ من حدث عاماً كاملاً ، كما في قصة نعيمان[2] التي ذكرنا من قبل .

بيد أن هذا لم يكن هو الحال الدائم أو الصفة الملازمة ، وهذا ما يؤكده حديث جابر حيث قال : « كان لا ينبعث في الضحك »[3]. وكان لا ينبعث في الضحك أي لا يسترسل فيه .

ولله در صاحب كتاب (تأويل مختلف الحديث) حين قال : فلو ترك رسول الله ﷺ طريق الطلاقة والهشاشة والدماثة إلى القطوب والعبوس والزماتة ؛ أخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء ، فمزح ﷺ ليمزحوا ، ووقف على أصحاب الدركلة[4] وهم يلعبون فقال : « خذوا

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى والطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٤) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وفيه كلام وقد وثق (٣/ ١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٥٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٥٠٩) .

(٤) الدَّرْكِلة بكسر الدال والكاف لعبة للعجم ، وضرب من الرقص أيضا .

يا بني أرفدة ليعلم اليهود أن في ديننا فسحة»[1]، يريد ما يكون في العرسات لإعلان النكاح، وفي المآدب لإظهار السرور.

وقد درج الصالحون والخيار على أخلاق رسول الله ﷺ في التبسم والطلاقة والمزاح بالكلام المجانب للقدح والشتم والكذب؛ فكان علي ﷺ يكثر الدعابة..

وكان ابن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه.

وقال جرير في الفرزدق:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزا ولو رضيت رمح استه لاستقرت

وقال الفرزدق وتمثل به ابن سيرين:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أسنانها مائة أو زدن واحدة وسائر الخلق منها بعد مبطول

وسأله رجل عن هشام بن حسان فقال: توفي البارحة أما شعرت؟ فجزع الرجل واسترجع، فلما رأى جزعه قرأ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ (الزمر:٤٢).

وكان زيد بن ثابت من أزمت الناس إذا خرج وأفكههم في بيته.

وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها.

وكان شريح يمزح في مجلس الحكم.

وكان الشعبي من أفكه الناس.

وكان صهيب مزّاحاً.

وكان أبو العالية مزّاحاً.

وكل هؤلاء إذا مزح أحدهم لم يفحش ولم يشتم، ولم يغتب ولم يكذب، وإنما يذم من المزاح ما خالطته هذه الخلال أو بعضها، وأما الملاعب فلا بأس بها في المآدب[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، مرجع سابق، ١/ ٢٩٣ وما بعدها بتصرف.

المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدها :

بل إنه ﷺ كان يضحك في أحلك الظروف وأشدها ، وهو في ساحة القتال ، وفي ميدان المعركة ؛ ذكر ابن كثير في تفسيره : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(القمر:٤٥)، وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنفال:١١).[١]

وروي عن جابر قال : كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته فلما قضى الصلاة قلنا : يا رسول الله رأيناك تبسمت ؟ قال : « مر بي ميكائيل وعلى جناحه أثر غبار ، وهو راجع من طلب القوم ، فضحك إليّ فتبسمت إليه »[٢].

هذا في غزوة بدر ؛ أما في غزوة خيبر فيحكي لنا عبد الله بن مغفل موقفاً خاصاً به أضحك فيه النبي ﷺ في هذه الغزوة : فعن حميد بن هلال عن عبد الله ابن مغفل قال : أصبت جراباً من شحم يوم خيبر ، قال : فالتزمته فقلت : لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً ، قال : فالتفت فإذا رسول الله ﷺ **متبسماً**[٣].

ويبتسم أيضاً في حنين ؛ فعن سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى اطلعت جبل كذا وكذا ؛ فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم فتبسم النبي ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله »[٤].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٢٩٢ / دار الفكر بيروت ، ١٤٠١ هـ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم في الجهاد (١٧٧٢) .

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١) ورواه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٣) والحاكم في مستدركه (٢/٩٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣) .

وها هو ﷺ يبتسم عندما خفف عن زينب عذاب القبر ، فعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ فخرجنا معه فرأينا رسول الله ﷺ مهتما شديد الحزن ؛ فجعلنا لا نكلمه حتى انتهينا إلى القبر فإذا هو لم يخلو من لحده ، فقعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله ، فحدث نفسه هنيهة وجعل ينظر إلى السماء ، ثم فرغ من القبر فنزل رسول الله ﷺ فيه فرأيته يزداد حزنه ، ثم إنه فرغ فخرج فرأيته سري عنه وتبسم ﷺ فقلنا : يا رسول الله رأيناك مهتما حزينا فلم نستطع أن نكلمك ، ثم رأيناك سري عنك فلم ذلك ؟ قال : « كنت أذكر ضيق القبر وغمه ، وضعف زينب فكان علي ؛ فدعوت الله عز وجل أن يخفف عنها ففعل ، ولقد ضغطها ضغطة سمعها من بين الخافقين » [1].

كما أنه ﷺ يضحك يوم عرفة ؛ لكنه ضحك الرضا والفرح ، كما أنه ضحك التشفي من إبليس ، فقد رُوي عن العباس بن مرداس ﷺ : أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء . فأجابه الله عز وجل أن قد فعلت وغفرت لأمتك إلا من ظلم بعضهم بعضًا . فقال : يا رب إنك قادر أن تغفر للظالم وتثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، فلم يكن في تلك العشية إلا ذا ، فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة فعاد يدعو لأمته ؛ فلم يلبث النبي ﷺ أن تبسم . فقال بعض أصحابه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ضحكت في ساعة لم تكن تضحك فيها ؛ **فما أضحكك أضحك الله سنك** ؟ قال : « **تبسمت** من عدو الله إبليس حين علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي ، وغفر للظالم ، أهوى يدعو بالثبور والويل ، ويحثو التراب على رأسه ، **فتبسمت** مما يصنع جزعه » [2].

ثم إنه ﷺ يضحك قبيل الممات ، عن أنس بن مالك الأنصاري ﷺ ، وكان تبع النبي ﷺ وخدمه وصحبه : « أن أبا بكر ﷺ كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ

---

(١) رواه والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٧) وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده ضعيف (٤٧/٣) .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٦٢٠٧) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٧٤٢) .

الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه».[1]

موقف النبي من ضحك الاستهزاء :

ولقد كان النبي ﷺ يقر أصحابه على ضحكهم ؛ إلا أن يرى مخالفة شرعية ، أو حرمة لله قد انتهكت فيزجرهم ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله ﷺ علقمة بن محرز على بعث أنا فيهم ، حتى انتهينا إلى رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش ، وأمّر عليهم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمي وكان من أصحاب بدر وكانت فيه دعابة ، وكنت ممن رجع معه ، فنزلنا ببعض الطريق . قال: وأوقد القوم نارا ليصنعوا عليها صنيعا لهم أو يصطلون. قال : فقال لهم : أليس لي الطاعة ؟ قالوا : بلى . قال فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه ؟ قالوا : بلى ، قال : أعزم عليكم بحقي وطاعتي لما تواثبتم في هذه النار فقام ناس فتحجزوا حتى إذا ظن أنهم واثبون ؛ قال : احبسوا أنفسكم فإنما كنت أضحك معكم . فذكروا ذلك للنبي ﷺ بعد أن قدموا فقال النبي ﷺ :« من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»[2]. وفي رواية ابن ماجه : « فإنما كنت أمزح معكم».

وحين ضحكوا من كلام الأعرابي حين سأل عن ثياب أهل الجنة ، قوّمهم النبي ﷺ ، فعن جابر قال : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا فضحك أصحاب النبي ﷺ ، فقال الأعرابي : لم تضحكون! من جاهل يسأل عالماً ؟ فقال النبي ﷺ : « صدقت يا أعرابي ، ولكنها ثمرات»[3].

---

(١) رواه البخاري في العمل في الصلاة (١٢٠٥) ومسلم في الصلاة (٤١٩) .

(٢) رواه أحمد (١١٦٣٩) وقال محققو المسند : إسناده حسن ، وابن أبي شيبة (٥٤٣/١٢) وابن حبان (٤٥٥٨) وابن ماجه (٢٨٦٣) . وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣١٢) .

(٣) رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق (٤١٥/١٠) .

وفي رواية عند البزار : قال : فقال الأعرابي : مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ ! فقال النبي ﷺ : «لا ؛ ولكنها تخلق خلقاً ، أو تنشق عنها ثمار أهل الجنة».[1]

وهنا نلحظ : أن النبي ﷺ تجاوب مع الأعرابي ، وأوضح له استفهامه .

وعن زر بن حبيش : أن عبد الله بن مسعود كان يجتني سواكاً من الأراك ؛ وكان دقيق الساق فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه فقال النبي ﷺ : مما تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقيه ؟ قال : «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»[2] .

ولهذا أمرهم النبي ﷺ بالوضوء تأدبا حين ضحكوا على الأعمى الذي وقع في الحفرة وهو يصلون ، روى الطبراني في الكبير عن أبي موسى قال : «بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ دخل رجل فتردى في حفرة كانت في المسجد وكان في بصره ضرر ، فضحك كثير من القوم وهم في الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ من ضحك أن يعيد الوضوء ويعيد الصلاة»[3] .

بيد أن الحق يقال : إنهم كانوا وقت الجد هم الرجال ، يقول بكر بن عبد الله : كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطيخ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال[4] .

---

(١) رواه أحمد (٧٠٩٥) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف ، ورواه البزار . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه البزار في حديث طويل ورجاله ثقات (١٠/٤١٥) .

(٢) رواه أحمد (٣٩٩١) وقال محققو المسند : صحيح لغيره ، وهذا إسناد حسن ، ورواه الطبراني في الكبير(٨٤٥٣) وابن أبي شيبة (١٢/١١٣) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .